مفاهيم الجمال كما تحققت فى ثقافة العرب

د. رءوف عباس

7 يونيو 2000

الكتاب: الجمال فى الثقافة العربية
Beauty in Arabic Culture
الكاتبة: دوريس أبو سيف
Doris Behrens - Abouseif
الناشر:
Markus Wiener Publishers, Princeton, USA, 1999.

يحتل الجمال مكانا بارزاً بين القيم الثلاث الرئيسية التى ترد إليها الأحكام التقويمية وهى :الحق والخير، والجمال. والتى شغلت الفلاسفة منذ القدم. أما الإدراك الخاص بإحساس الجمال وتذوقه وما ارتبط به وبالإبداع من نظريات، فهى تشكل موضوع "علم الجمال " أو "الإستطيقا " Aethetics " الذى وضع بومغارتن اصطلاحه مأخوذا من كلمة يونانية هى aitheticos ومعناها الإدراك الحسى وساهم فى وضع أسس "علم الجمال " فلاسفة التنوير فى أوروبا. وقد سعى بعض الدارسين إلى البحث عن ملامح محددة " للجمال " كمدرك حسى فى الثقافات السابقة على العصر الحديث، أو قل- إن شئت – ثقافة الغرب (الرأسمالى) الحديث، باعتبار أن لكل ثقافة رؤيتها الخاصة لمفهوم الجمال، وطريقة تلقيه أو الاستمتاع، به حتى إذا لم يكن لديها نظرية فى "علم الجمال "، على نحو ما فعل "ديبروين De bruyne" فى دراسته للاستطيقا فى العصور الوسطى التى نشرت بالفرنسية عام 1947، وكان للثقافة العربية نصيب من اهتمامه فى هذا الكتاب.

وحاول بعض الباحثين العرب المعاصرين أن يطرحوا مفهوموا لما سموه "علم الجمال فى تراث الفكر الإسلامى " أو "علم الجمال الإسلامى " مثلما فعل عفيف البهنسى فى كتابه " دراسات فى الفن العربى "(974)، وما فعله محمد احمد العزب فى مقاله "فلسفة الجمال من الوجهة الإسلامية " (1980) وعبد الفتاح رواس قلعة حى فى كتابه "مدخل إلى علم الجمال الإسلامى" (1991) وهى المحاولات التى استفزت الدكتور سعيد توفيق، فى دحضها فى كتابه "تهافت مفهوم علم الجمال الإسلامى" (1997)، ونفى وجود "علم الجمال " فى التراث الفكرى الذى أبدعه المسلمون.

من هنا تأتى أهمية الكتاب الذى نعرض له هنا والذى صدرت طبعته الأوروبية عام 1998، وطبعته الأميركية عام 1999، ونشر ضمن سلسلة الشرق الأوسط مما يعنى أن الكتاب يحمل فى مضمونه قيمة علمية ذات بال للمكتبة الغربية. والمؤلفة دوريس أبو سيف مصريةأصلاً ، ألمانيةتجنساً وإقامة، فهى تعرفجيداً المصادر العربية وتحسن استخدامها كما أن لها دراية كبيرة بالأدبيات الإنكليزية والفرنسية والألمانية التى تعالج التاريخ الحضارى الإسلامى، ومن ثم فهى حجة فى هذا المجال،وخصوصاً فى الغرب مما يفضى أهمية خاصة على كتابها "الجمال فى الثقافة العربية".

وتحرص دوريس أبو سيف أن تحدد للقارئ هدف الدراسة ومجالها، فهى لا ترى غضاضة من دراسة المفاهيم الجمالية عند الثقافات التى قدمت مساهمتها فى الحضارة الإنسانية قبل العصر الحديث، مع يقينها بالفارق الكبير بين "الجمال " و"علم الجمال " وعلمها ان التراث الفكرى الإسلامى لا يتضمن نظريات فى الفن أو التذوق أو الإبداع. لكن ذلك لا يعنى خلو الثقافة الإسلامية من مفاهيم للجمال، ورؤى تتصل بالإدراك الحسى والمعنوى للجمال والتذوق إلى غير ذلك من أمور.

قسمت الباحثة كتابها إلى محورين أحدهما دينى، والآخر علمانى، اعتمدت فى الأول على القرآن والحديث وكتب الفقه، فراحت تستخرج منها صورة العالم فى الإسلام، ورؤية القرآن للكون، ثم خصت فكر أبو حامد الغزالى فى التصوف فتناولت مفاهيم المتعة، ورمزية النور فى فكر المتصوفة، متنقلة بين أعمال الغزالى وابن الفارض والحلاج، مستشفة منها منظورهم للجمال ورؤيتهم لإدراكه.

وفى المحور الثانى "الجمال العلمانى والحب " تناولت علاقة العامل السيكولوجى بالنسبية والتناسق، والطبيعة ومحاكاتها فى الأعمال الفنية، ومفاهيم ومعايير الجمال الإنسانى، والحب فى إطاره الصوفى والوجدانى والحسى، والموسيقى والأدب (الشعر والنثر). ويلى ذلك مباحث عدة فى القسم الثانى من الكتاب الذى خصصته للفنون المنظورة (الزخرفة والنقش، والتصوير، والنحت، والعمارة). وهو القسم الذى يحتل ما يقرب من نصف الكتاب، وقدمت فيه الباحثة خلاصة معرفتها بحكم التخصص العميق والدقيق فى الفن الإسلامى. وهنا نجدها ترجع للأعمال الأدبية مثل كتابات الجاحظ وابن طفيل، وألف ليلة وليلة، ودواوين الشعراء والآثار الإسلامية بين العديد من المصادر العربية التى ضمتها قائمة مصادر الدراسة.

ورأت الباحثة أن الثقافة العربية الإسلامية طورت مفاهيم للجمال مستقلة عن القيم الأخلاقية أو الدينية، إذ يرى التراث العربى الإسلامى أن جمال الكون موضع التوكيد فى القرآن، كما أن القرآن ذاته يعبر عن جمال الصياغة باعتباره كلام الله، ولكن التأثر بالفلسفة الاغريقية جعل المتصوفة والفقهاء يتناولون علاقة الجمال بالحب كعامل أساسى فى حركة الكون، فالصوفى يتغنى بجمال الله تعالى بصورة تجعله يقدم فى منظور إنسانى باعتبار أن الله خلق الإنسان على صورته.

ولم يحل المبدأ الخاص أن الإسلام لا يقيد الفرد وحده وإنما يضع إطار حركة المجتمع أيضاً ، وفق مقولة "الإسلام دين ودولة " يتضمن العبادات والمعاملات معاً ، لم يحل دون تكوين ثقافة دنيوية، فقد أقر الإسلام أمورا عدة وفقا لمبدأ "المصلحة العامة " التى لعبت دورا فى ربط السياسة بالدين، أو– بعبارة أدق – إضفاء صفة الشرعية على السياسة الدنيوية. فاستمرت العلوم العقلية المستمدة من التراث الإغريقى تمثل عصب الانتاج العلمى الإسلامى حتى عندما عبر المتزمتون عن كراهيتهم للفلسفة، وكان يتم تدريسه فى الجوامع والمدارس طوال العصور السابقة على العصر الحديث. واحتلت الثقافة الدنيوية مكانا مرموقا، طالما كانت لا تتعارض مع الشرعية، وكان الفن من مكونات تلك الثقافة الدنيوية.

ولما كان العرب قد كونوا إمبراطورية واسعة الأرجاء، ضمت شعوبا متعددة الأعراق والثقافات، فقد اعتبروا أنفسهم الورثة الشرعيين لتلك الثقافات، ومن ثم أضفوا رعايتهم الكاملة على الفنون، فاتبعت الأساليب الفارسية والإغريقية فى بلاط الخلفاء، واعتبرت رعاية الحاكم للفنون سبيلا لإضفاء الأبهة عليه، لأن رعاية الفنون كانت تؤدى إلى تألق صورة المجتمع الإسلامى فى مواجهة أعدائه. وهنا تشير الباحثة إلى ميزة مهمة تمتعت بها الثقافة الإسلامية العربية كان لها مردوها الإيجابى على الفنون، فلما كان الإسلام ديناً لا يعرف الكهنوت، لا يحتاج المسلم إلى كاهن يتعبد عن طريقه، فقد تمتع الفن وغيره من مكونات الثقافة الدنيوية العربية بقدر كبير من الحرية على عكس الفنون الأوروبية فى العصور الوسطى التى خضعت لتوجيه الكنيسة وتدخلها الدائم. ومن هنا كان الحكام وحدهم - من خلال رعايتهم للثقافة الدنيوية- يجددون طابع المنشآت الدينية وغير الدينية، وكيفية زخرفتها أو تزيينها مما كان له أبلغ الأثر على الإبداع الفنى.

وهكذا شهد فن الخط العربى، والموسيقى، والعمارة، والزخرفة والنقش ازدهاراً كبيراً بفضل رعاية الحكام، فكان العمران الحضرى ورفاهية نخبة سكان المدن من أهم منجزات الحضارة الإسلامية. وهنا كانت المدن قاعدة للحكام سواء كان خليفة أوسلطاناً أو أميراً ،مركزاً للفن،ومركزاً للدين على خلاف نشوء وتطور العمران الحضرى فى أوروبا العصور الوسطى كنقيض لسلطة الأباطرة والملوك، فقد كانت الثقافة العربية ثقافة حضرية فى المحل الأول، لغتها العربية الفصحى، فلم يعترف الأدب العربى باللغة الدارجة كأداة للتعبير الأدبى. ولما كان الشعر يمثل الجنس الأدبى الأكثرشيوعاً وانتشاراً وأكثر الفنون احتفالاً فى العالم العربى، فإننا نستطيع أن نضع أيدينا على مفاهيم الجمال فى الشعر العربى، كما عبر عنها الشعراء والنقاد والفلاسفة. فقد كان الشعرفناً دنيوياً خالصاً ، وقلما تناول أموراً دينية، ولعل ذلك يرجع إلى ما آثر عن النبى (صلى الله عليه وسلم) من نفور من الشعراء، إضافة إلى ما ورد فى القرآن بهذا الخصوص.

واتبع النقد الأدبى العربى فكر أرسطو من حيث التمييز بين المحتوى والإطار. فقيمة العمل الفنى وقدرته على الإمتاع تعتمد على المحتوى والمعنى والأصالة. وليست هناك قوى غيبية ميتافيزيقية لها صلة بالإبداع، مما يعكس التوجهات اللاكهنوتية فى الفنون الإسلامية. فنجد الشعراء المتصوفة يستخدمون فى التعبير عن الوجود والحب للذات الآلهية المفردات نفسها التى يستخدمها الشعراء فى قصيد الغزل والخمريات، كذلك استخدم الحرفيون المفردات نفسها المعمارية والزخرفية فى المبانى الدينية والدنيوية دون تمييز، ومن دون حرج أو قيود.

ورأى ابن سينا فى الشعر العربى طبيعة ذات توجه إمتاعى (هدفه تحقيق المتعة) بلا حدود، ورأى معظم النقاد أن جمال الشعر يكمن فى إطلاقه العنان للخيال (أعذب الشعر أكذبه) وبذلك أجمع النقاد على أن الشعر العربى يتميز بالإبهار والإمتاع لأنه يقدم صوراً جمالية غير محسوسة، على نقيض الشعر الإغريقى او الفارسى الذى يقدم نوعاً من القص المنظوم.

وبالنسبة للموسيقى، أرجعت البراعة الفنية فيها إلى الإلهام الشيطانى وليس الدينى، فقد صنفت الموسيقى والشعر والخمر ضمن المكروهات غير أن العرب ورثوا علم الموسيقى عن الإغريق وما لبث أن احتل مكاناً بارزاً بين العلوم عندهم. وكان هناك إجماع على أن الفنون ذاتية الطابع، وقيمها الخلقية إنما ترجع إلى ذاتية من يمارسونها، فقد استمر الشعراء يكتبون فى الخمريات حتى نهاية العصر العثمانى، ورأى المتصوفة فى الموسيقى مصدراً للوجد الذى يقربهم من الله.

وأنفرد الخط العربى بين الفنون المنظورة بطابعه العلمى، وما يصفه مؤرخو الفن المحدثون كتصميم ذى طابع إسلامى، لم ير فيه مبدعه الأصلى الرأى نفسه. فلم يعالج المؤلفون المسلمون القدامى ما يحدد سمات الفنون الإسلامية ويميزها عن فنون الثقافات الأخرى عدا النفور من تصوير الشخوص، ولا نجدتناولاً فى أى من المؤلفات لجماليات الزخرفة الهندسية والنباتية التى نراها فى الآثار الإسلامية. لقد جاء ذكر الرياضيات ومنافعها فى بعض المؤلفات، ولكنها تخلو من حديث حول الجماليات الهندسية التى عبر عنها الفن الإسلامى. ويذكر أن العلماء لم يتعرضوا أو يعترضوا على الفنون المنظورة وجاءت معارضتهم لتصوير الشخوص فى وقت متأخر، بعد ما كان الفن الإسلامى قد استقر وقدم أروع إبداعاته، ولم تكن معارضتهم لتصوير الشخوص تستند إلى أصول فقهية رصينة.

وليس هناك أى إشارة فى المصادر العربية إلى المعا نى المرتبطة بالأسلوب الفنى الإسلامى سواء ما اتصل بالأرابيسك أو ما ارتبط بالزخارف الهندسية، فقد كانت الفنون ترتبط بالمعايير الجمالية وحدها وتعبر عن الجمال. فموضوع الفن قد

يعبر عن رمز دينى أو دنيوى أو عنهمامعاً .

لقد زينت النقوش أشياء كثيرة، كما تناول الشعر كل شيء حتى الطعام، فلم تكن هناك محاذير دينية تحول دون تصوير الطبيعة بأشجارها وأزهارها، ولكن الفنان العربى فضل النمطية، على حين توسع الفنان التركى والفنان الإيرانى فى استخدام عناصر الطبيعة فى نقوشهما. وشاع ذلك فى الفترات المتأخرة من العصر الإسلامى.

وتحتل العمارةمكاناً منفرداً فى المؤلفات العربية، ولم تصنف كعلم بين العلوم أو كفن من الفنون (كالتصويرمثلاً). فالمؤرخون الذين تناولوا فى كتبهم الأعمال المعمارية اكتفوا بوصفها، وبينوا الأغراض التى استخدمت فيها، فقد كانت العمائر تقيم وفق نفعها ومدى تعبيرها عن عظمة الحاكم وحرصه على القيام بواجبه.

وإذا كان العرب لم يقدموا لنا نظرية عامة فى الاستطيقا(علم الجمال)، فإن المفكرين العرب الذين عاشوا فى ما بين القرنين العاشر والثانى عشر للميلاد، قدموا مفاهيم تتعلق بالعمل الفنى وإدراك الجمال ركزت على المعرفة والجهد كأساس للإبداع الفنى والإمتاع. وترجع أصالة الخطاب العربى عن "الجمال " فى تأكيد العوامل السيكولوجية للإمتاع فالجمال يقاس بدرجة المتعة التى تتحقق للمتلقى، والتى تتمثل فى قدرة الفرد على التذوق، وحاجاته النفسية التى تشحذ تلك القدرة. وجاء ابن خلدون فى القرن الرابع عشر الميلادى ليضيفبعداً جديداً إلى التناول العقلانى للفنون عندما يربط بين كل الأنشطة الثقافية والبيئة الإجتماعية والسياسية ولكن تلك الرؤية الخلدونية لم تنبئ بفتح جديد فى مجال الفنون العربية الإسلامية، فقد شهدت القرون التاليةتدهوراً ملحوظاً .

هكذا قدمت دوريس أبو سيف، سياحة فكرية فى موضوع من أهم مواضيع الدراسة فى تاريخ الثقافة العربية، تناولت مفاهيم الجمال فى مختلف مجالات الإبداع الفنى، وإذا كانت قد عالجت مفاهيم الجمال (جمال الكون) فى الخطاب الدينى فى المحور الأول من الكتاب، فإنما كان هدفها إبراز عدم تناقض الإسلام مع الجمال كقيمة مع بيان الموقف الأخلاقى إزاءه. وكانت نظرة الباحثة أعمق وأدق من غيرها من الباحثين فى الغرب عندما أدركت إتساع المجال "للثقافة الدنيوية" العربية.